الوطنية في كتابات عبد الرزاق قسوم

مقالات البصائر نموذجا

الأستاذ محمد الأمين بوحلوفة

معهد الوطني للأسلاك الخاصة

بإدارة الشؤون الدينية –وهران–

إن الإنتماء للوطن كجزء من الذات و حضور واع يلزم على الفرد المشاركة في الحياة العامة، و محاولة النهضة ببلده على إعتبار أنه مواطن أو وطني ، ولعل هذا المصطلح سبق و أن تطرق له الفلاسفة كل من منظوره الفكري ، وقد تجلت المفاهيم حول كنه الوطنية ، لكن الشائع كتعريف للوطنية هو حب الوطن وبذل النفس في سبيله ، ولعل كل إنسان يعيش ضمن رقعة بلد ما يعتز بوطنيته لذلك البلد ، و نلاحظ الكثير من المؤرخين و الأدباء و الفلاسفة في كتاباتهم تطبع تلك الوطنية و تتجلى واضحة فيها نتيجة لإعتزازهم بالإنتماء لأوطانهم .

بالعودة للأستاذ عبد الرزاق قسوم و ما أنتجه من مؤلفات في مجالات متعددة نجد تلك الوطنية و الإعتزاز بهويته الجزائرية بارزة جدا ، و لعل الأمر لم يقتصر هنا بل ظهرت الوطنية أيضا في مقالاته الصحفية في جريدة البصائر ، إذ عمل جاهدا لزرع روح الوطنية في الأجيال الصاعدة من أبناء وطنه وسعى لإعطاء مفهوم واضح للوطنية ، معتمدا على تجربته في الحياة و على فلسفته إذ يعتبر من الوطنيين الأحرار الذين دافعوا عن الثوابت الوطنية و الهوية الجزائرية.

المبحث الأول : الوطنية في فكر عبد الرزاق قسوم

يقول الأستاذ عبد الرزاق قسوم عن نفسه :" لقد نَشَأْتُ في بيئة دينيّة، وسط أسرة مُصلحة و وطنيّة، فرضعت حليب الوطنيّة مع حليب أمّي، فكنتُ منذ الطفولة أَتَغَنَّى بالأناشيد الوطنيّة التي لم تَسْمَع بها – قَطعًا – صاحبةُ الفجر، وهي جزءٌ من ثقافة صوت الوطن المُفَدّى لا "صوت البلاد" الملعون.

و مِن هذه الأناشيد التي أحفظها و يحفظها غيري من أبناء جيلي في مدينة " المغيّر " نشيد " مُحمَّد العيد آل خليفة " شاعر الإصلاح في جمعية العلماء :

صوت بعيد المدى هل يجاب ناداكم للفداء بالرقاب

إلى الفدا إلى الفدا يا شباب

و نشيد " علال الفاسي "، الشاعر المغربي :

إلى كم نعيش بدون حياة و كم ذا ننام عن الصّالحات

فواحسرتاه على حالنا وماذا استفدنا من الحسرات

و نشيدٌ آخر و هو نشيد :

بِلادُ العُرب أوطاني مِنَ الشَّام لِبَغْدان

و مِنَ نجدٍ إلى يمنٍ إلى مِصرَ فَتِطوان

فلاَ حَدٌّ يُبَاعدُنا وَ لَا دينٌ يُفَرّقُنا

لسان الضَّادِ يَجمعُنا بِغسّان و عَدْنانِ

أَقُولُ هذا لِأَسْتَنِدَ به إلى أَنَّ هذه البيئة الدّينيّة الوطنيّة الّتي غُذِّيتُ بأُكْسُجينِها هي الّتي حَصَّنَتْنِي ضِدَّ دَاءِ فَقْدِ المَناعةِ الوَطَنِيّةِ، و أَكْسَبَتْنِي المناعة الضَّروريّة، لأَنْخَرِطَ في مَنَاخ الثّورة قَبل ميلادها فَضلًا عن الانْضِمَام إليها بعد ميلادها **(1)**

لقد حرص الأستاذ عبد الرزاق قسوم على إظهار وطنيته حتى و هو يرد على بعض منتقديه إن صح القول فهو بين في رده هذا الذي جاء على ماكتبته جريدة الفجر في شخصه أن وطنيته لا تحتاج لدليل و يؤكد على وطنيته فيقول" شاركت في مظاهرات 11 ديسمبر 1960م، بإعداد وكتابة الشعارات التي رفعت من المتظاهرين باللغة العربية والفرنسية، و تمّ ترشيد الشعارات، فبعد أن كانت شعارات ساذجة مثل: " الجزائر مسلمة " و " الجزائر جزائرية " أصبحت الشعارات على النحو التالي على قماش كبير وبحروف كبيرة : " تحيا الجزائر المسلمة " " شعب الجزائر مسلم " "تحيا الحكومة المؤقتة" "تحيا جبهة التحرير الوطني"... إلخ، و قد كتبتُ هذا في بيتي بحي الأبيار، وأتيتُ به إلى حي بئر مراد رايس، حيث رفعه المتظاهرون، فغيّر معنى الوعي الوطني بالمظاهرات(**2**) .

المبحث الثاني : دور عبد الرزاق قسوم في بعث الوطنية في أجيال وطنه

جاء في حوار مع الأستاذ عبد الرزاق قسوم على هامش الملتقى الوطني حول شخصية العلامة آطفيش حيث حث الشباب بقوله " نصيحة فأوجهها للشباب، وإنني أقول ما قال محمد العيد إلى العلم إن رمت النجاح إلى العلم، ولكن العلم كما نفهمه نحن هو العلم المتوج بالثوابت الصحيحة والقيم الإسلامية وبالأصالة العميقة، وأن يكون جيلنا وشبابنا من خدمة العلم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص، لأن الأشخاص يزولون والمبادئ تبقى، نحن ندعوهم لأن يكونوا مع العلم، ومع الذين يخدمون العلم، ومع مبادئ جمعية العلماء لأن قسوم يزول والجزائر باقية" (**3**) .

يمكن القول أن الأستاذ يحرص على بعث روح الإيمان بالعلم كأساس للتغير و يسعى لتسخير الوطنية كأداة لخدمة الجزائر فبدونها لا يمكن أن تستمر المبادرات و الكفاءات على العملفعلى الشاب ان يكون مفيدا لوطنه(**4**) .

إن روح الوطنية عند عبد الرزاق قسوم ليست شعارات يهتف بها بل عمل على الشباب العمل بها و السعي لتحقيقها على الواقع فالعالم الآن يعيش حالة من الصراع الإيديولوجي الفكري حيث أصبح الشاب عرضة لتلك الأفكار التي تجعله ينسلخ عن هويته و وطنه و يعترف بالغير بل يمكنه أن يتميع .

سعى الأستاذ عبد الرزاق قسوم كثيرا لبعث الوطنية في شباب الإستقلال على مختلف أطيافهم حيث أكد في تصريح له لجريدة البلاد " على الشباب أن يتحلوا بالروح الوطنية التي تبني الأمم و الأمة الجزائرية" **(5)** ، إن الواقع الحالي يفرض على الشاب كطاقة لا يجب الإستهانة بها بل التأكيد عليها و ضخ مبادئ الهوية الوطنية الجزائرية و الروح الوطنية ليكون مهيئا لدحر أي أفكار قد تصيب فكره الوطني .

المبحث الثالث: نماذج عن وطنيته في جريدة البصائر .

1/ ظروف نشأة البصائر :

لقد كان الاضطهاد الذي تعرضت له صحافة جمعية العلماء المسلمين عامل مهم في ظهور البصائر الأولى،حيث تمثل هذا الاضطهاد في تعطيل كل من – السنة – الشريعة– الصراط – ،علي التوالي ثم صدور قرار يمنع الجمعية بإصدار أية صحيفة أخرى و دام هذا التحجير مدة سنتين كاملتين غير أن المصلحين اغتنموا فرصة،رحيل –جان ميرانت المعروف بنزعته المعادية للإصلاح**(6)**عن الولاية العامة،فما كان منهم إلا إن اتصلوا بالمدير الجديد –ميو– و حسنوا علاقتهم به،و تظاهروا بنوع من الولاء لحكومته.في فرنسا ، و عبروا عن مقصد جمعيتهم و هو العناية بتربية الشعب و تهذيبه،و تعليمه لغته و دينه و ابتعادهم الابتعاد الكلي عن السياسة و دروبها،فرخص إصدار هذه الجريدة،فبرز العدد الأول منها سنة 1935/12/27**(7)**

إضافة إلى هذه الظروف ظروف أخرى هي ظهور الصحافة الإصلاحية،و هي تلك الصحف التي تبنت مبدأ الإصلاحالديني و الاجتماعي و الثقافي داخل المجتمع الجزائري و بأقلام جزائرية ثائرة و مثقفة بثقافة إسلامية يدفعها، حب الدين الإسلامي و الوطنية.

و قد قاد هذه الحركة رواد الإصلاح كبار،و الذين تأثروا بروح الحركة الاصلاحية للجامعة الإسلامية في المشرق و التي تشبعوا منها عند هجرتهم نحو المشرق جراء السياسة الاستعمارية،و قانون التجنيد الإجباري فقضى هؤلاء كل فترة حرب بعيدين عن وطنهم،وبعد أن وضعت الحرب أوزارها رجع المهاجرين إلى وطنهم بنظريات معادية لفرنسا و شرعوا في وضع برنامج اجتماعي و ثقافي يستهدف إلى توعية الأهالي و فضح السياسة الاستعمارية .

2/ التعريف بجريدة البصائر :

تعد البصائر الصحيفة الرابعة التي أصدرتها جمعية العلماء المسلمين،و هي أهم صحف هذه الجمعية و من أكبر الصحف العربية الجزائرية شهرة و انتشارا و أعظمها، لما تركته من أثر عميق في مجرى الحياة الوطنية من جميع نواحيها(**8**)صدرت عام 27 ديسمبر 1935 وهي جريدة أفلتت من التوقيف حيث ظلت تصدر بانتظام الي عام1939 وسميت البصائر بصائرا تناصا مع قوله تعالى «قد جائكم بصائر من ربكم .....» سورة الأنعام –آية 104 .

و شحت صدرها هذه الآية الكريمة غير أن هذه الآية حذفت منها فيما بعد،و يصفها الإبراهيمي « أنها أحد الألسنة الأربعة الصامتة لجمعية العلماء المسلمين(**9**)و كانت الآية الكريمة مكتوبة تحت العنوان و ذلك في أعداد البصائر التي صدرت في عاصمة الجزائر ابتداء من العدد 1 إلى 83. و كانت تصدر في قسنطينة – يوم الجمعة من كل أسبوع و المدير المسئول و رئيس تحريرها الميلي مبارك(**10**) .

أما العدد الأول من الجريدة فصدر في الجزائر العاصمة يوم الجمعة 1935/12/27و مدير و رئيس تحريرها العقبي الطيب و بعد العدد 183 انتهى الصدور بالجزائر و إنتقل إلى قسنطينة و تغيرت إدارتها إلى الميلي مبارك بعد أن أتهم العقبي بمقتل محمود كحول فسجن و إظطر إلى التقليل من نشاطه و اتخذ الحذر فتخلى عن إدارة البصائر ، و يلاحظ أن العدد الأخير 83 الذي صدر بالعاصمة لا يوجد به اسم العقبي الطيب،ثم إبتداء من العدد 84،بدأ صدورها بقسنطينة(**11**) إلى تاريخ 1939/08/25 حيث توقفت في هذا التاريخ و قد صدر منها 180 عددا في 4سنوات،انتهت سنتها الأولى بعدد 50 بتاريخ 1937/01/08،و ابتدأت سنتها الثانية بعدد 51 بتاريخ 1938/11/15،و انتهت السنة الثالثة بعدد 140،و ابتدأت السنة 4 بعد 141 بتاريخ 1938/11/25 و انتهت نهائيا بعدد 180 بتاريخ 1939/08/25،(**12**)بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية و هي سجل حافل للأمجاد لا يستغنى عنها أي باحث أبدا ،لا يمكن لأي كان أن

يكتب عن الجزائر العربية المسلمة في العصر الحديث دون الرجوع إلى البصائر(**13**)،كانت مطبعتها بالعاصمة التي كان يملكها الشيخ أبو يقضان أحد أعضاء إدارة الجمعية في ذالك الحين(**14**)،أما قسنطينة كانت إدارتها بشارع لامبير رقم 13(**15**) ،وبعد الحرب العالمية الثانية صدرت جريدة في سلسلتها الثانية بالعاصمة الجزائر و ذالك عام 1947 إلى 1956 المدير و صاحب الامتياز المسئول الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين صاحب العلم الغزير و القلم السيال الراقي في الدفاع عن الوطن و العروبة الإسلامية،و قد طبعت في عدة مطابع بالجزائر و كانت تجعل في الحرية من عنوان الجريدة آيات قرآنية و أحاديث نبوية،و حكم عربية بعنوان من آداب القرآن من آداب السنة النبوية من حكم العرب،وتارة لا تجعل ذالك بسبب الظروف و المقام (**16**) .

3/ وطنية الأستاذ عبد الرزاق قسوم من خلال مقالاته في البصائر:

جاء في العدد رقم 579 و بمقال عنوانه " أدب الإختلاف في السياسة " " هو إختيار لدرجات التحصين الوطني .... ومدى الوعي بواجبات المواطن و حقوقه في سلامة الأداء و عمق الإنتماء" (**17**). أنتهى

يحاول الأستاذ قسوم من خلال هاته المقالة التي جاءت بمناسبة الحملة الإنتخابية لتشريعيات 2012م ينتقد المستوى الغير الحضاري الذي وصلت له عقول الداعيين لل'نتخاب و هذا على حساب بعض القيم الحضارية و الروح الوطنية التي لم تجد لها مكانا ، وهو يركز على أن من أسباب التحصين الوطني و الوعي عو أن يقوم الفرد الجزائري بواجبه كمواطن و المطالبة بحقه في نفس الوقت ، و يرى الأستاذ أيضا أن عمق الإنتماء للوطن و الدولة إنما هو إثبات إستحقاقه للتغيير و تحسين الواقع وفق رؤية وطنية شاملة و حضارية .

يقول الأستاذ قسوم في مقالة له المعنونة " نحن و الكشكول السياسي العربي 02 "

" ....أهم ما تواجهه الحكومة هو العودة بالجزائري إلى الذات بكل أبعادها بالجزائري إلى الذات بكل أبعادها الحضارية و الوطنية" (**18**).

يذكر الأستاذ أن الروح الوطنية لدى الفرد الجزائري ناقصة إن لم نقل مغيبة نتيجة ظروف إجتماعية جعلت هذا الفرد لا يثق في الشعارات لهذا ركز الأستاذ على ضرورة خلق أنماط و مراجعة للنفس من خلال زرع الوطنية التي تدعوا للبناء الحضاري و التي تخلق فرد جزائري له روح وطنية ، فهو يعلم أن الوطنية قد تغيرت عند الفرد ثم يقول " ...المواطن الواعي لحقيقة وجوده و الوفي لأصوله و جذوره نستطيع أن نضع الأساس الذي لا تزعزع قواعده و حدوده ... وبذلك يكون البناء الوطني الذي لا تتزعزع أركانه "**(19)** .

نقول أن الأستاذ قسوم يركز على الفرد الجزائري للنهضة أذا أحسنت الدولة بما تملك من وسائل في صناعة الفرد الوطني فحتما لن يكون ذلك الفرد سوى قوة يمكن الإتكال عليها في المحن و الوعي بالأصول الوطنية و الثوابت التاريخية يصنع ذلك الفرد الذي لا ينهار أمام الصعاب و التحولات التي تطرأ على واقعه .

في عدد البصائر رقم 696 و بعنوان "الجزائر أو الطوفان " يقول الأستاذ قسوم:

"..... و الجمعية باعتبارها جمعية تاريخية يهمها الوطن و الأمة و المصلحة العامة فيها تدعوا إلى التوافق و مراعاة مقومات الأمة"**(20)** .

ينوه الأستاذ لدور جمعية العلماء على المحافظة على الثوابت الوطنية المتمثلة في الإسلام كدين الجزائر و العربية كلغة الفرد و الجزائر وطنه ، ويذكر ايضا على أن مراعاة مقومات الأمة أمر ضروري جدا كأساس للتوافق بين جميع أطياف المجتمع فهذا ما يظهر لنا جليا وطنيته وحبه للوطن و السعي دائما لنشر أفكار الوطنية و التعلق بالجزائر و الحفاظ على المكتسبات التي تثبت الهوية الوطنية .

في العدد الصادر في 03 جوان 2012م مقال للأستاذ قسوم بعنوان " فأين تذهبون"

" بحيث لن يكون الولاء إلا للجزائر الوطنية بأبعادها الحضارية و تنميتها الإقتصادية و الصناعية و الثقافية و السياسية " **(21)** .

يعطي الأستاذ الولاء للجزائر و فقط ، و الوطنية التي تبرز فيها خصال الفرد الوطني الذي يجب أن تكون الجزائر ذات تنمية إقتصادية و صناعية و ثقافية و سياسية لأن الوطنية تفرض عليه حب وطنه و الأمل بل السعي لكي تكون في كل جانب من الجوانب أحسن و أفضل حضاريا .

ويقول أيضا " إننا من وحي المعانات و بدافع من حب الجزائر " **(22)** كما هو معلوم أن المعاناة التي يقصدها هي قيود الإحتلال الفرنسي الذي عاشه الأستاذ كشاهد و مناضل فهو وطني و قد عبر بها بـ" حب الجزائر" وهذا دليل قوي على روحه الوطنية و تحليه بها .

يقول الأستاذ عبد الرزاق قسوم في مقالة له تحت عنوان" الإستقلال الوطني بين جيلين "

و الذي يستعرض فيه الفارق بين جيل الإستقلال و جيل الثورة حيث ينوه على إعطاء الفرص لذلك الجيل و تبرز وطنية الأستاذ في قوله " ..... محروما من نعمة الحب إلا لله و الوطن و خاليا من كل رغبة إلا رغبة النهوض بالوطن فكانت المعركة المقدسة لديه هي معركة المصير أي معركة الخلاص و التحرير و الإقدام على كل عمل عسير باذلا في سبيل ذلك العرق و الكثير و الدم الغزير من أجل الوطن الكبير" **(23)** .

هاته الفقرة دالة بشكل كبير على تعلق الأستاذ بوطنه الكبير فهو يشيد بالرغبة في النهوض بالبلد بكل ما أوتينا من قوة و حتى كان ذلك بالدم و هذا في سبيل شيء واحد هو الوطن الكبير و الذي يستحق منا كل شيء فالوطنية في مقالات الأستاذ قسوم تكاد تكون السمة الغالبة و الطاغية في جلها لأن إنتماءه للوطن الكبير الجزائر و حبه له جعله يعتز بوطنيته كرجل أعطى للجزائر الكثير.

خاتمة :

يعتبر الأستاذ عبد الرزاق من بين الكوادر الجزائرية المخضرمة فهو من الرعيل الذي تربى في مدرسة إبن باديس ، و نشأ وطنيا في أفكاره و معتقداته ، و قد كانت مشاركته في الثورة برهانا قاطعا على حبه الشديد للوطن الجزائر ، وما يمكن أن نخرج به من خلال هاته الورقات هو :

-يعتبر فكر الأستاذ عبد الرزاق قسوم وطنيا يحاول أن يبرهن عليه من خلال كل الكتابات التي تصدر له و بذلك يمثل المثقف الذي يضع الجزائر قبل كل شيء

-سعى الأستاذ إلى بث الروح الوطنية في جيل ما بعد الإستقلال فقد رأى أنها هل السبيل للتطور الحضاري و العلمي للفرد الجزائري لأن وعيه كمواطن يفرض عليه بالضرورة الإنتماء و البذل له و ممارسة الوطنية كفعل لا كشعار .

-لقد تجلت روح الوطنية في كتابات الأستاذ قسوم خاصة في مقالات البصائر و هو يستعرض دائما الواقع المعاس للجزائر و يؤكد على أن الوطن و حبه يجب أن يكون واجبا لكي تمارس فيه الحقوق و الواجبات و أن يساهم كل فرد في ذلك .

- لا يمكن أن نعدد جوانب الوطنية في شخصية الأستاذ قسوم لأنها غلبت على فكره و عمله و هو بذلك يمثل لنا الرجل الوطني صاحب المبادئ الحقيقية التي تدعوا لجزائر الحضارة و العلم و التطور .

إن الرجال في عصرنا اليوم أمثال الأستاذ الدكتور عبد الرزاق قسوم مهما قدمنا لهم ، نبقى دائما مقصرين في حقهم لأن حقهم علينا كبير و هم رجال من معدن لا يبلى مع السنين بل يزداد قيمة و رفعة فنقول أنه من واجبنا الإنحناء لمثلهم .

الهوامش :

1/ عبد الرزاق قسوم ، لله و للتاريخ و الوطن، الموقع الرسمي لجمعية العلماء المسلمين على النت.

2/ المرجع نفسه

3/ الملتقى الوطني الأول " الشيخ آطفيش " حوار حمود أوجانة ،غرداية 2008م

4/ جريدة الشروق اليومي ، 2013/11/05 ، الجزائر مقال" الشباب مطالب بمقاومة الإنسلاخ الفكري "

5/ جريدة الجزائر ، 2013/11/05م عدد 2015

6/ ناصر محمد، الصحف العربية الجزائرية ، دار عين مليلة ، الجزائر ، ص 212

7/ أبو اليقظان

8/ ناصر محمد ، مرجع سبق ذكره ، ص 212

9/ البصائر، ع1 , في 25-07-1947 ص1 ، عمود 3

10/ ناصر، الصحف ، مرجع سابق ، ص 235

11/ الصيد سليمان : نفخ في الأزهار كما في قسنطينة من أخبار ، مطبعة الجرائد للمجلات ،بوزريعة الجزائر ، ص165

12/ مريوش أحمد ، الشيخ الطيب العقبي ودروه في الحركة الوطنية الجزائرية، الجامعة الأردنية ، الأردن، 1990 م ، ص 365

13/ الصيد سليمان، مرجع سابق ، ص 166

14/ ناصر ، الصحف العربية ، ص 213

15/ مرتاض عبد الله : أدب المقاومة الوطنية في الجزائر [1830-1962], سلسلة منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954 ، ج2 ,ص235

16/ الصيد ، مرجع سبق ذكره، 166

17/ البصائر عدد 597 ، 23إلى 29 أفريل 2012 ،ص 01

18/ البصائر عدد 618 ، 17إلى 23 سبتمبر 2012م ، ص01

19 / البصائر ، المرجع نفسه

20/ البصائر عدد 696 ، 17 إلى 23 مارس 2014م ص 01

21/ البصائر عدد 602 ، 82ماي الى 03 جوان 2012 م ،ص01

22/ المرجع نفسه

23/ البصائر عدد 608 ، 09 الى 15 جويلية 2012م ،ص 01